الكلام واللغة
بين القدماء والمحدثين

د / محمد عـلام محمد
المدرس بقسم اصول اللغة
بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر
أسـيوط

استطاع البحث اللغوى الحديث أن يتوصل الى أمر من الأمور الهامة ، هو التمييز بين اللغة والكلام .

وهذا بفضل الجهود التى بذلها علماء اللغة فى هذا العصر ، وما قدموه من نظريات كان لها بالغ الأثر فى هذا المجال .

فقد خصص علماء اللغة المحدثون قسما من دراستهم للمسـائل العامة التى تعد مدخلا لدرس اللغة على مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، ومن هذه المسائل العامة ما يعرضون له من تفريق بين اللغـة والـكلام .

الا أننا لا نستطيع أن نغفل عن دور القدماء فى هذا المجال ، فقد أدركوا ما أدركه المحدثون ، وتنبهوا الى أن هناك تمييزا وفرقا بـين اللغـة والـكلام .

وفى هذا البحث نلقى الضوء على ما ذكره القدماء والمحدثون من علماء اللغـة فى هذا الشـأن .

الكلام واللغة عند اللغويين العرب القدماء :

عنى العرب منذ فترة مبكرة « بالحدود » و « والتعريفات » مما جعل بعض الباحثين المحدثين يهاجمون النحو العربى مثلا بأنه صادر عن المنطق الأرسطى على ما بين المنهج الأرسطى والمنهج العربى فى موضوع « الحد » من خلاف (١) .

فقد تردد فى كتب النحو العربى عدد من المصطلحات ، يقسمون بها النشاط اللغوى الى «لفظ » و « قول » و « كلمة » و « كلام » و « جملة » . ولكل من هذه المصطلحات مفهوم معين .

فاللفظ يعنى عندهم مجموعة من الأصوات الانسانية ، أفادت أم لم تفد ، فان لم يفد اللفظ فهو مهمل .

و « القول » قد يعنى عندهم « الكلمة » وقد يطلقونه على « الكلام » ولكنه — كما يظهر — مجموعة من الأصوات الانسانية المفيدة .

أما « الكلمة » فما دل عندهم على معنى مفرد (٢) .

الكلام :

يختلف الكلام عن الكلمة ، فهو ما دل على أكثر من معنى مفرد ، وفاد فائدة تامة يحسن السكوت عليها .

والكلام بهذا الاعتبار يصلح لأن يطلق على « الجملة »

---

(١) فقه اللغة فى الكتب العربية . د. عبده الراجحى ص ٥٩ .
(٢) ص ١ ج ١ من شرح الكافية للرضى طبعة بيروت .

الواحدة ، كما يصلح كذلك لأن يطلق على عدد لا حصر له من الجمل(٣)

غير أن سيبويه « ت ١٨٠ هـ » قد صرح فى مواضع كثيرة من كتابه بما يدل على أن الكلام لا يطلق حقيقة الا على الجمل المفيدة ، فمن ذلك قوله « واعلم أن قلت انما وقعت فى كلام العرب على أن يحكى بها ، وانما تحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولا » (٤) • عنى بالكلام الجمل ، وبالقول المفردات أما ابن جنى « ت ٣٩٢ هـ » فقد أيد أن الكلام قد يكون جملة واحدة ، أو قد يكون عددا كبيرا من الجمل ، فذهب الى أن الكلام » انما هو فى لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برءوسها ، المستغنية عن غيرها ، وهى التى يسميها أهل هذه الصناعة الجمل ، على اختلاف تركيبها » (٥) •

ثم قال عن الكلام انه « جنس للجمل التوام : مفردها ، مثناها ، ومجموعها » (٦) •

فشرط الكلام عند ابن جنى هو أن يفيد معنى تاما ، يحسن السكوت عليه ، وبذلك لا يعد ابن جنى الكلمة الواحدة كلاما ، كما لا يعد من الكلام الكلمات المركبة التى لا تعطى معنى مستقلا كقولك :

« ان قام زيد » •

وذهب الى مثل هذا الزمخشرى « ت ٥٣٨هـ » فى المفصل

---

(٣) دراسات نقدية فى النحو العربى : د• عبد الرحمن أيوب ١/١٢٥ ـ مطبعة مخيمر القاهرة ١٩٥٧م •

(٤) الكتاب ١/١٢٢ تح عبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ١٩٧٧م القاهرة •

(٥) الخصائص ١/٣٢ تح محمد على النجار ـ الطبعة الثانية ـ بيروت

(٦) المصدر السابق ١/٢٧ •

وابن يعيش « ت ٦٤٣ هـ » فى شرحه له ، اذ عد الاثنان الجملة مرادفة للكلام .

فالزمخشرى بعد أن فرغ من ذكر حد الكلام بأنه « المركب من كلمتين أسندت احداهما الى الأخرى » قال « ويسمى الجملة » (٧).

وابن يعيش نص على ذلك أيضا بقوله « والكلام عند النحويين عبارة عن كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، ويسمى الجملة نحو زيد أخوك ، وقام بكر » (٨) .

ونحن نعتقد أن هذا الفهم للكلام هو فهم سليم ، يوافق رأى اللغويين المحدثين ، ذلك لأن ابن جنى ومن شايعه جعلوا الافادة شرط الكلام أو الجملة .

غير أن جمهور النحاة كانوا يخالفون هذا المذهب فى فهم الكلام والجملة . فقد صرح سيبويه وغيره من أئمة النحويين بأن ما لم يفد ليس بكلام (٩) .

يقول الجزولى « ت ٦٠٧ هـ » فى مقدمته « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » (١٠) .

---

(٧) المفصل ص ٦ طبع دار الجيل ـ بيروت .

(٨) شرح المفصل ١/٢٠ طبع عالم الكتب ـ بيروت ـ نشر مكتبة المتنبى بالقاهرة .

(٩) انظر : شرح التسهيل لابن مالك ـ ١/٥ تح د. عبد الرحمن السيد ـ ط (١) مكتبة الأنجلو المصرية .

(١٠) المقدمة الجزولية فى النحو ص ٣ ـ تح د. شعبان عبد الوهاب محمد ـ ط (١) القاهرة ١٩٨٨م .

ويقول الشيخ خالد الأزهـرى ، صـاحب شرح التصريح على التوضيح « والكلام فى اصطلاح النحويين عبارة عما اجتمع فيه أمران: اللفظ والافادة » (١١) .

وابن هشام « ت ٧٦١ هـ » يرى أيضا أن الكلام غير الجملة « اذ شرطه الافادة بخلافها ، ولهذا تسمعهم يقولون جملة الشرط ، جملة الجواب ، جملة الصلة ، وكل ذلك ليس مفيدا ، فليس بكلام » (١٢).

وهذا يعنى أن النحاة لم يجعلوا شرط الجملة أن يفيد معنى تاما يحسن السكوت عليه ، ما اشترطوا ذلك فى الكلام ، وانما اشـترطوا فيها أن تكون من ركنين ، سواء أعبرت عن معنى كامل مستقل بنفسه، أم لم تعبر .

ولذا يقول السيوطى « ت ٩١١ هـ » « ان الجملة أعم من الكلام، اذ شرطه الافادة بخلافها » (١٣) .

كما اشترط الأشمونى « ت ٩٢٩ هـ » — فى شرحه على الألفيـة أن يفيد الكلام فائدة تامة يحسن السكوت عليها (١٤) .

هذا هو الكلام عند النحويين ، وما ذكره هؤلاء فى بيان حقيقـة الكلام ومفهومه لا يختلف كثيرا عما ذكره اللغويون فى هذا المجال ، فقد اشترط اللغويون أيضا أن يكون الكلام مكتفيا بنفسه ، مفهوما ، مفيدا لمعنـاه .

---

(١١) شرح التصريح على التوضيح ١/١٩ — ط عيسى الحلبى .
(١٢) مغنى اللبيب ص ٤٩٠ — تح د. مازن المبارك وآخر — ط (٥)
(١٣) همع الهوامع ١/١٣ ط دار المعرفة — بيروت
(١٤) شرح الأشمونى على الألفية ١/٢٠ — طبع عيسى الحلبى .

يذكر ابن جني في كتابه « الخصائص » تصوره للكلام بقوله « أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه .. فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام »(١٥) .

ثم يبين المراد باللفظ بعد ذلك عند تعريفه للقول بـ « أنه كل لفظ مذل به اللسان ، تاما كان أو ناقصا . فالتام هو المفيد ، أعنى الجملة وما كان في معناها والناقص ما كان بضد ذلك » (١٦) .

فاللفظ عند ابن جنى ما مذل به اللسان ، أى نطق به أو أفشاه(١٧)

ويمكن أن نستخلص من هذا التعريف الذى ذكره ابن جنى للكلام أن الكلام هو الألفاظ المنطوقة بالفعل والتى تفيد معنى تاما يحسن السكوت عليه .

وهذا يتفق مع ما ذكره العالم اللغوى أبو الحسين أحمد بن فارس « « ت ٣٩٥ هـ » في كتابه « الصاحبى » عن الكلام بقوله « زعم قوم أن الكلام ما سمع وفهم ، وذلك قولنا : قام زيد وذهب عمرو . وقال قوم : الكلام حروف مؤلفة دالة على معنى .

والقولان عندنا متقاربان ، لأن المسموع المفهوم لا يكاد يكون الا بحروف مؤلفة تدل على معنى » (١٨) .

---

(١٥) الخصائص ١/١٧ .

(١٦) نفسه ١/١٧ .

(١٧) المذل : الضجر والقلق ، ومذل بسره : أفشاه . لسان العرب (مذل) ٦/٤١٦٤ ط دار المعارف .

(١٨) الصاحبى ص ٨٧ ـ تح السيد أحمد صقر ط عيسى الحلبى ـ القاهرة .

فالكلام عنده أصوات منطوقة مفهومة مؤلفة من حروف تدل على معـــنى .

ويقول ابن منظور « ت ٧١١ هـ » في لسان العرب « الكلام ماكان مكتفيا بنفسه ، وهو الجملة »(١٩) .

ولا يكون الكلام مكتفيا بنفسه الا اذا كان مفيدا يفهمه السامع.

ويذكر الفيومى « ت ٧٧٠ هـ » أيضا فى المصباح المنير أن « الكلام فى أصل اللغة عبارة عن أصوات متتابعة لمعنى مفهـــوم » (٢٠) وهذا ما ذكره علماء اللغة المحدثون عن الكلام ومفهومه ، كما سيأتى بعد .

اذن مفهوم الكلام عند النحويين واللغويين يكاد يكون متفقا ، فهو الأصـــوات المنطوقة المستقلة بنفسها والتى تفيد فائدة تامة تفهم معـــنى .

واذا كان القدماء من علماء العربية قد وضحوا لنا مفهوم الكلام وبينوا لنا حقيقته ومعناه ، فاننا نريد أن نقف على جهودهم فى بيان حقيقة اللغة ، لندرك الفرق بين الكلام واللغة عندهم .

اللغـــــة :

على الرغم من أن أبا الفتح عثمان بن جنى هو أول من عـــرف باللغة ــ فيما نظن ــ اذ لا نجد تعريفا باللغة ــ فيما نعلم ــ قبل القرن الرابع الهجرى .

على الرغم من هذا ، فان تعريفه بها يثير دهشة الباحثين البعيدين عن تطور الحياة العلمية العربية ، لأنه يقترب اقترابا شديدا من كثير

---

(١٩) لسان العرب (كلم) ٥/٣٩٢٢ .
(٢٠) المصباح المنير (كلم) ٢/٥٣٩ .

من تعريفات المحدثين ، ولأنه يشمل معظم جوانب التعريف التى عرضها « علم اللغة » فى العصر الحديث (٢١) •

بل يعد تعريف ابن جنى للغة من التعريفات الدقيقة الى حد بعيد•

يقول ابن جنى فى تعريف اللغة :

« أما حدها فانها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (٢٢)•

حين ننظر الى هذا التعريف نرى أن ابن جنى نظر الى اللغة نظرة لغوية عامة فلم يقصد اللغة العربية أو غيرها من اللغات ، وانما يعنى اللغة الانسانية بوجه عام •

يكشف عن هذا السياق الذى جاء فيه هذا التعريف ، فقد ذكره فى حديثه تحت « باب القول على اللغة وما هى »(٢٣) ، ثم قوله بعد ايراد هذا التعريف « وأما اختلافها فلما سنذكره فى باب القول عليها « أى اللغة » أمواضعة هى أم الهام »(٢٤) •

وهو ما أورده بعد ذلك تحت « باب القول على أصل اللغة أالهام هى أم اصطلاح »(٢٥) •

فهو بهذا يعنى بها اللغة بمعناها العام الشامل ، من غير قصد أو تحديد لمفهوم لغة معينة ، أو لهجة خاصة •

---

(٢١) فقه اللغة فى الكتب العربية ص ٦٠ •
(٢٢) الخصائص ١/٣٣ •
(٢٣) المصدر السابق ١/٣٣ •
(٢٤) المصدر السابق ١/٣٣ •
(٢٥) المصدر السابق ١/٤٠ •

لقد سبق ابن جنى برؤيته هذه ، وتعريفه هذا ما توصل إليه علماء اللغة المحدثون فى هذا العصر ، كما سيأتى بعد .

فقد كان ينظر الى طبيعة اللغة ، ووظيفتها التى تؤديها وتقوم بها نظرة علمية دقيقة .

ويشتمل تعريف ابن جنى هذا للغة على عناصر أربعة ، توضح حقيقتها ، وتسهم فى فهم طبيعتها ودورها فى مجال الحياة البشرية .

وهذه العناصر هى :

١ ــ مادة اللغة « طبيعة اللغة » :

اللغة فى مظهرها المادى ، وصورتها المنطوقة أصوات يتركب منها ما يسمى بالكلمات والألفاظ ، ومن هذه تتكون الجمل والعبارات .

وهذه الأصوات عبارة عن رموز أحلها الانسان بموهبته الخلاقة محل الخواطر والأفكار ، وذلك لأن الرمزية هى العمل الأساسى فى الفكر الانسانى (٢٦) .

واستخدم الرموز الصوتية المحدودة فى كل لغة من لغات الأرض فى أنساق مختلفة أتاح لها أن تكون آلاف الكلمات .

وتختلف الرموز الصوتية التى يستخدمها الانسان ، والتى تتكون منها الكلمات والجمل عن سائر وسائل الاتصال الأخرى كالاشارات والعلامات .

---

(٢٦) اللغة بين القومية والعالمية : د. ابراهيم أنيس ص ٢٠ ــ طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٠م .

وذلك لأن الرموز الصوتية لا تتجدد بالزمن أو الوقت أو اللحظة التى تستخدم وتنطق فيها ، ولكنها قد تعبر عن أمور ماضية أو خالية كما أنها قد تعبر عن المستقبل •

أما العلامات التي تصدر عن الحيوانات أو الطيور أو غيرها من الكائنات الأخرى فانها تعبر عن الحاضر ، وترتبط من حيث الدلالة باللحظة أو الحالة التى تصدر فيها •

واذا كانت اللغة ــ كما رأينا ــ لا تعدو الا أن تكون فى طبيعتها أصواتا يتركب منها ما يسمى بالكلمات ، فهذا ما نفهمه من اشارة ابن جنى فى تعريفه « انها أصوات ••• » •

٢ ــ وظيفة اللغة :

ان تحقيق الاتصال بين أفراد المجتمع ، والتعبير عن أغراض الفرد والجماعة هما الوظيفة الأساسية والمحددة للغة •

ويتعدد التعبير عن الأغراض ويتفاوت على حسب الأفراد ، وعلى حسب الموقف والحالة ، وعلى حسب البيئة والمجتمع ، فقد يكون هذا التعبير تبادلا للأفكار والآراء والمعلومات بين الأفراد والجماعات ، وقد يكون تعبيرا عن عاطفة أو انفعال ، فرح وسرور ، خوف أو حزن ، غضب أو ألم ، وغير ذلك من ألوان النشاط الانسانى •

فاللغة هى الرابطة الحيوية بين أفراد المجتمع ، والتى تعبر عن حاجاته ، وتجمع شمله ، وتوحد أهدافه •

وقد أشار ابن جنى الى وظيفة اللغة فى قوله « ••• يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » •

---

(٢٧) د• ابراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ص ٢٩ •

٣ ــ اجتماعية اللغــة :

يرى بعض الباحثين أن المجتمع بالنسبة للغة كالتربة بالنسبة للزهرة أو الحبة • فالحبة قابلة للانبات والاثمار ، ففيها تكمن قابلية الحياة والانبات ، ولكنها لا تنبت الا فى تربة ، كذلك اللغة بالنسبة للانسان فهو يولد ولديه أجهزة النطق وأعضاؤه ولديه الاستعداد وقابلية الكلام والنطق ، ولكنه لا ينطق ولا يتكلم الا فى ظل مجتمع •• فوجوده ونشأته منعزلا عن الناس لا يتحقق له نطق ولا كلام ولا تنشأ له لغــة (٢٧) •

اذن فاللغة ظاهرة اجتماعية لا يتحقق وجودها الا فى مجتمع ، ووجود جماعة •

وهذا ما يفهم من اشارة ابن جنى فى قوله « •• كل قوم •• » أى جماعة ، لأن القوم هم الجماعة •

٤ ــ عرفيــة اللغــة :

اللغة ككل سلوك اجتماعى يحكمها العرف الذى يكتسب مع الزمن ما يشبه القداسة ، لا سيما بعد أن نزلت بها الكتب المقدسة ، وكتبت بها روائع الأدب فى العالم •

ان أصحاب اللغة قد اتفقوا وتقبلوا دلالة هذه الأصوات على معان معينــة •

ونستطيع أن نفهم أيضا من تعريف ابن جنى للغة الاشارة الى عرفيتها (٢٨) •

---

(٢٨) انظر فى عرفية اللغة : الخصائص ١/٤٠ ، واللغة بين القومية والعالمية ص ١٥ ــ ١٩ •

هذا وقد ارتضى كثير من اللغويين العرب القدماء الذين جاءوا بعد ابن جنى تعريفه السابق للغة ، وتناقلوه فيما بينهم •

فقد نقل هذا التعريف السيوطى فى كتابه «المزهر فى علوم اللغة» ١/٧ ، ونسبه الى ابن جنى ، كما أشار اليه ابن منظور فى « لسان العرب » ، ولكنه أغفل نسبته الى ابن جني •

ومما ارتضى هذا التعريف أيضا ابن خلدون « ت ٨٠٨ هـ » فهو يقول فى مقدمته « اعلم أن اللغة فى المتعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانى ناشئة عن القصد لافادة الكلام » (٢٩) •

وكذلك الشريف الجرجانى « ت ٨١٦ هـ » الذى يقول فى تعريف اللغة « هى ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (٣٠) •

ومن الملاحظ أن ابن فارس والثعالبى لم يعرفا باللغة فيما كتبا عن « فقه اللغة » (٣١) •

ومن علماء العربية الذين تكلموا عن اللغة وعرفوا بها فى كتبهم ابن الحاجب « ت ٦٤٦ هـ » يقول فى مختصره « حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى » (٣٢) •

ويقول الخليل بن أحمد الفراهيدى « اللغة واللغات واللغون :

---

(٢٩) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٥ •

(٣٠) التعريفات ص ١٠٨ ـ طبع دارالشئون الثقافية العامة ـ بغداد

(٣١) فقه اللغة فى الكتب العربية ص ٦٠ •

(٣٢) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ١/٨ ـ طبع عيسى الحلبى •

اختلاف الكلام فى معنى واحد » (٣٣) • فاللغة عند الخليل وابن الحاجب ألفاظ وضعت لمعنى •

وحين نتأمل كلام القدماء عن اللغة نجد أن تعريفهم بها قائم على الاتصال بها ، وليس تعريفا مستوحى من خارجها ، ومن الواضح أنه ليس مأخوذا عن أرسطو أو عن الفلاسفة على وجه العموم ، ويكفى أنه تضمن معظم الجوانب التى يتفق عليها اللغويون المحدثون •

الكلام واللغة عند اللغويين المحدثين :

اذا كنا قد عرفنا الفرق بين اللغة والكلام من خلال النصوص والآراء التى قال بها بعض اللغويين القدماء من العرب ، فاننا نريد أن نعرف ما قاله علماء اللغة المحدثون ، وما توصلوا اليه من نظريات علمية كان لها بالغ الأثر وعظيم الشأن فى فهم اللغة ، وبيان حقيقتها ، فمن ذلك مثلا ما توصلوا اليه من أن اللغة بنت المجتمع ، فاللغويون المحدثون يتفقون — دون استثناء — على هذا القانون (٣٤) •

وقد عبر بعضهم عن ذلك بقوله : « فى أحضان المجتمع تكونت اللغة • وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة الى التفاهم فيما بينهم ••• فاللغة وهى الواقع الاجتماعى بمعناه الأوفى ، تنتج من الاحتكاك الاجتماعى ، وصارت واحدة من أقوى العرى التى تربط الجماعات وقد دانت بنشوئها الى وجود احتشاد اجتماعى » (٣٥) •

---

(٣٣) كتاب العين (لغو) ٤٤٩/٤ — تح د• مهدى المخزومى وآخر — طبع بغداد ١٩٨٥م •

(٣٤) د• عبده الراجحى : فقه اللغة فى الكتب العربية ص ٧٢ •

(٣٥) فندريس : اللغة ص ٣٥ ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠م •

وسأتناول ــ بالدراسة ــ ما ذكره المحدثون من علماء اللغة العرب ، وغيرهم فى هذا المجال .

(أ) علماء اللغة العرب :

يفرق اللغويون المحدثون من العرب بين الكلام واللغة ، فيتحدثون عن طبيعة كل منهما وتكوينه ، ويذهبون الى أن « الكلام عمل واللغة حدود هذا العمل . والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك .

والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط . والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة . والكلام يحس بالسمع نطقا والبصر كتابة واللغة تفهم بالتأمل فى الكلام » (٣٦) .

ومعنى ذلك « أن الذى نقوله أو نكتبه كلام ، والذى نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب واللغة هى الموصوفة فى كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها .

والكلام قد يحدث أن يكون عملا فرديا ، ولكن اللغة لا تكون الا اجتماعية » (٣٧) .

فاللغة اذن هى النظم المجمدة فى كتب النحو والصرف والمعجم، والكلام هو نشاط عضوى حركى يأتى تطبيقا لتلك النظم ، وموافقا لحدودها وشروطها . والكلام على ذلك نشاط عضلى صوتى فردى ، أما اللغة فمجموعة من النظم التى أنتجها المجتمع ، والتزم بها على

---

(٣٦) د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٢ ــ ط (٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩م .

(٣٧) المرجع السابق ص ٣٢ .

مر العصور ، وهى لذلك تمثل « العقل الجمعى » ، ولا يمكن أن تكون نشاطا يبتدعه فرد ، أو ينفرد به انسان ، ويمثل بعض اللغويين هذه الصورة بالقاموس الذى توجد فيه الكلمات صامتة ، ولكنها صالحة للنطق والاستعمال يختار منها كل فرد ما يحتاج اليه ، وما يعبر به عن مقاصده وأفكاره ، فيكون ما فى المعجم رموزا متوارثة ، صنعتها الجماعة واصطلحت عليها عبر العصور ، ويكون اختيار الفرد من هذا المعجم ما يشاء ، ثم النطق به أو كتابته نشاطا فرديا محضيا ، تدفع اليه حاجة معينة أو ظرف اجتماعى خاص .

وطبيعى ألا يكون الكلام مقبولا ، يفهمه المجتمع ويرضى عنه ما لم يساير اللغة ، ويوافق نظمها الموروثة ، وقواعدها المتفق عليها ، ذلك لأن اللغة جهاز متعدد الأنظمة والوظائف ، يوجد فى مجتمع ما ، والكلام هو الاستخدام الشخصى لهذا الجهاز (٣٨) .

فاللغة ، نظرا لكل ما تقدم ، حقيقة اجتماعية والكلام عمل فردى يشمل ما يقوله الفرد أو يكتبه .

على أن اللغة وان كانت من عمل « العقل الجمعى » لا تستغنى عن نشاط الفرد ، اذ أن كثيرا من الصيغ يبتدعها الفرد ، ثم يرضاها المجتمع فتشيع ، وتدخل فى نطاق الاستعمال العام (٣٩) .

ويفرق بعض الباحثين المحدثين بين اللغة من جانب والكلام من الجانب الآخر على النحو التالى : « اللغة نظام من الرموز الصوتية المتفق عليه فى البيئة اللغوية الواحدة ، وهى حصيلة الاستخدام المتكرر لهذه الرموز الصوتية التى تؤدى المعانى المختلفة .

---

(٣٨) راجع : د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٤٠ ـ طبع دار الثقافة ـ الدار البيضاء ١٩٧٩م .

(٣٩) المرجع السابق ص ٤٣ وما بعدها .

أما الكلام فهو الكيفية الفردية للاستخدام اللغوى (٤٠) • ثم يوضح هذا الباحث ما ذكره فيقول « المعنى الاصطلاحى لكلمة «لغة» يجعلها عبارة عن مجموعة الامكانيات التعبيرية الموجـودة فى البيئـة اللغوية الواحدة ، أما الكلام فهو كيفية اختيار الفرد لعناصر بعينها من هذه الامكانيات التعبيرية الكثيرة •

وتتضح هذه القضية فى التراكيب والمفردات بصفة خاصة ، فلا يوجد فرد يستخدم كل مفردات لغته مهما أوتى من الفصاحة واللسن والتمكن اللغوى ، فكل فرد يستخدم جزءا من الامكانيات التعبيريـة المتاحة فى البيئة اللغوية ، ويعبر بهذا الجزء عن حاجاته اليومية أولا ثم عن حرفته ــ وما أكثر الحرف ــ ومجالات اهتمامه وفكره وثقافته»(٤١)

ويقارن الدكتور محمود السعران بين اللغة والكلام فيقـول : « اللغـة : نظـام من العـلامات الأصـطلاحية ذات الـدلالات الاصطلاحية » (٤٢) • ويفسر « العلامات » بأنها « الآصوات » ، ونأخذ من تعبيره باصطلاحية العلامات « الأصوات » : أن اللغة عرفية ، وأنها اجتماعية أيضا •

ويقول الدكتور السعران عن الكلام انه « نشاط انسانى يختلف أيما اختلاف اذا انتقلنا من مجتمع الى مجتمع ، لأنه ميراث تاريخى محض للجماعة » (٤٣) • وما قرره الدكتور محمود السعران شـاركه

---

(٤٠) د• محمود فهمى حجازى : علم اللغة العربية ص ٢٦ ــ طبع دار الثقافة بالقاهرة •

(٤١) المرجع السابق ص ٢٧ •

(٤٢) علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٦٦ ــ طبع دار الفكر العربى بالقاهرة •

(٤٣) المرجع السابق ص ٦٠ •

فيه بعض الباحثين المعاصرين ، فهو يقول عن الكلام انه « ممارسة فردية منطوقة على أى مستوى » (٤٤) ، ويقول عن اللغة انها «صورة منظمة ذات قواعد وقوانين ، وذات وجود اجتماعى » (٤٥) .

اذن فاللغة عند هؤلاء العلماء مجموعة منتظمة منسجمة مع نفسها من الرموز والعلاقات التى تصطلح عليها الجماعة ، ويشترك فى استعمالها جميع أفراد تلك الجماعة .

وبعبارة أخرى هى « نظام عرفى لرموز صوتية يستغلها الناس فى الاتصال بعضهم ببعض » (٤٦) .

أما الكلام فهو استعمال الأشخاص للغة ، وهذا يعنى أنه نشاط فردى يستعمل جزءا صغيرا من اللغة بصورة متعمدة متبصرة ، ولأنه فردى ولأنه واع فانه لا يخضع للدراسة العلمية الخالصة .

طابع عمل المتكلم واللغوى :

تحدث اللغويون المحدثون عن موقف المتكلم والباحث من اللغة فى اطار حديثهم عن الكلام واللغة ، فهم يقارنون بين عمل المتكلم واللغوى على النحو التالى :

اللغة بالنسبة للمتكلم معايير تراعى وبالنسبة للباحث ظواهر تلاحظ ، وهى بالنسبة للمتكلم ميدان حركة ، وبالنسبة للباحث موضوع دراسة ، وهى بالنسبة للمتكلم وسيلة حياة فى المجتمع ، وبالنسبة للباحث وسيلة كشف عن المجتمع .

---

(٤٤) د. عبد الصبور شاهين : فى علم اللغة العام ـ ص ٢٩ ط (٤) ١٩٨٤م ـ مؤسسة الرسالة، (بيروت) .

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) د. ابراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ص ١١ .

المتكلم يشغل نفسه بواسطتها ، والباحث يشغل نفسه بها ، ويحسن المتكلم اذا أحسن القياس على معاييرها ، ويحسن الباحث اذا أحسن وصف نماذجها »(٤٧) •

ان الباحث اللغوى لكى تكون دراسته سليمة المنهج ، يجب أن يضع فى اعتباره التطور فى اللغة بتغيرها من جيل الى جيل آخر على فترات تتخللها تغيرات وانحرافات دائمة يستتبعه بالضرورة تغير ما يراعيه المتكلم على حسب العرف اللغوى الجديد الذى يفرض نفسه عليه كى يتوافق معه •

فاللغة من طبيعتها التطور المستمر الذى لابد لأحد على ايقافه وتحديده •

العلاقة بين الكلام واللغة :

اللغة ضرورية لفهم الكلام كما أن الكلام ضرورى لفهمها ، فهو لا يدرس منفصلا عن اللغة الا عند اعتباره عملا صوتيا بحتا مقطوع الصلة بالمعنى ، كما يحدث عند فحص المرضى بالحصر والعيوب النطقية والنفسية الأخرى واختبار أصوات المغنين والمذيعين وقبولهما فى الاذاعة ، فان الدراسة اللغوية للكلام تجعله — حتى على هذا المستوى الصوتى — على صلة باللغة ولابد أن يكون كذلك من حيث قصد به أن يدل على معنى(٤٨) •

ومن صور العلاقة بين اللغة والكلام أن الكلام أداء فردى فى اطار اجتماعى ما ، وهذا الاطار الاجتماعى هو اللغة(٤٩) •

---

(٤٧) د• تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٣ — ٤ — القاهرة ١٩٥٨م •

(٤٨) انظر : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٣ •

(٤٩) المرجع السابق ص ٤٦ •

فاللغـــة ظاهرة اجتماعية ، ولكن اســـتخدامها الحقيقي لا يتم الا بين الفرد والآخرين فالمتكلم لا غنى له عن اللغـــة ، واللغـــة قبل استخدامه من المتكلم جثة هامدة لا حراك فيها .

اذن لا يمكن الفصـــل بين اللغـــة والكلام ، فكلاهما لازم للآخر ومتوقف عليه .

(ب) علماء اللغـــة الغربيون :

بعد أن عرضنا لرأى علماء اللغة العرب فى العصر الحديث،وذكرنا ماقالوه فى الفرق بين الكلام واللغة يجدر بنا أن نتعرف على هذه القضية من خلال ما ذكره علماء اللغة فى الغرب حتى نستطيع أن نقارن بينهم وبين علماءالعربية على أساس سليم يبعد بنا عن التحيز لفريق‌دون آخر

ان تاريخ الدراســـات اللغوية فى الغرب يرتبط ارتبـــاطا وثيقا بالعالم اللغوى السويسرى فرديناددى سوسير (١٨٥٧ — ١٩١٣م) الذى يعد رمزا لبـــداية عهـــد جديد فى تاريخ الدراســـات اللغوية ، لمـــا جاء به من أفكار حديثة ، أو تصورات جديدة للنظريات القديمة التى سادت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(٥٠) .

فقد كانت محاضراته فى « علم اللغة » ، والتى طبعت بعد وفاته أهم عمل فى الحقـــل اللغوى حتى ذلك العصر ، فلقد بين فيها الأسس التى يقوم عليها « علم اللغة » الحديث(٥١) .

ومن آرائه انبثقت مدارس لغوية متعددة كمدرسة جنيف ، وحلقة براغ ، وحلقة كوبنها جن .

---

(٥٠) د. محمود جاد الرب : علم اللغة نشأته وتطوره ص ٨٤ ـ ط دار المعارف ـ ط (١) ١٩٨٥م .

(٥١) د. غالب المطلبى : فى علم اللغة ص ١٨ ط بغداد ١٩٨٦م .

وكان لتلك الآراء الأثر العميق فى تأسيس ذلك المنهج الذى عرف بالمنهج البنيوى ، ليس فى حقل اللغويات فحسب ولكن فى حقول علمية وانسانية أخرى •

يرى دى سوسير أن النشاط اللغوى للفرد والجماعة له مظهران :

أحدهما : يسمى اللغة La Langue والآخر هو الكلام La Patole فاللغة عنده تمثل الظاهرة الاجتماعية الموحدة لمجتمع معين ، انها عنصر محدد ، انها نتاج اجتماعى للمقدرة على الكلام الانسانى •

كما أنها صورة ذهنية مشتركة موجودة فى ذهن الفرد والجماعة اللغوية وعلى حد تعبير دى سوسير نفسه « رصيد يستودع فى الأشخاص الذين ينتمون الى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام ، وهو نظام نحوى يوجد وجودا تقديريا فى كل دماغ أو على الأصح فى أدمغة المجموع من الأشخاص »(٥٢) •

ان اللغة بهذا المعنى ليست سوى نظام اصطلاحى جماعى من الرموز والقواعد مختزن فى ذهن كل فرد من أفراد الجماعة اللغوية يخضع له الكلام ، وبدون هذا النظام لا يستطيع الانسان أن يتكلم أو يفهم •

ومن ثم فاللغة واقعة اجتماعية ، وليست فردية ، فهى شىء عام يمكن دراسته دراسة علمية خالصة • ثم يتحدث دى سوسير عن الكلام فيقول :

أما الكلام فانه يمثل ذاتية النشاط الفردى ، أو النشاط الفعلى للفرد المعين فهو الصورة الواقعية أو الفعلية أو المنطوقة للغة عندما

---

(٥٢) المرجع السابق ص ٢٠ •

تتحقق وتستعمل على لسان فرد من أفراد هـذا المجتمع المعين ، انه تطبيق للنظام الاجتماعى اللغوى أو تعبير عن اللغـة بالمعنى المشـار اليـه(٥٣) .

وبمعنى آخر هو استعمال الأشـخاص للغة ، وهـذا يعنى أنه نشاط فردى يستعمل جزءا صغيرا من اللغة بصورة متعمدة .

ويصف دى سوسـير الكلام بأنه غير متجانس ، بل هو متعدد الجوانب والعناصر المتغايرة ، انه يغطى جوانب متعددة فى وقت واحد، فيزيائية عضوية ونفسية ، وهو يخص الجانبين الفرد والمجتمع(٥٤).

ومن ثم فالكلام لا يمكن تصنيفه داخل الظاهرة الانسـانية على عكس اللغـة . فالـكلام المنطوق يختلف من فرد الى آخـر ، ومن جماعة أو فئة الى جماعة أو فئة أخرى فى قليله أو كثيره ، ولكن هناك رابطة بينها جميعا تتمثل فى وجود قواعد لغوية وسلوكية عامة ، ونظام عام يجعل منها لغة واحدة مفهومة فى المجتمع الواحد .

فاذا أردنا أن نصور ذلك التمييز بين اللغـة والكلام فى لغتنـا العربية ـ على حسب ما يرى دى سوسير ـ نستطيع أن نقول : ان اللغة عبارة عن الأنظمة الخاصة ، والأنماط والأشكال الثابتة الموجودة فى ذهن الجماعة اللغوية التى تتكلم وتتحدث بهذه اللغة .. فاذا مانطق واحد من أفراد هذه الجماعة اللغوية بأى صورة من صـور النظام اللغوى فى صورة صوتية فعلية واقعية كانت هذه الصورة الواقعية هو ما يمكن أن نسميه الكلام العربى .

---

(٥٣) علم اللغة نشأته وتطوره ص ٨٧ .

(٥٤) دى سوسير : فصول فى علم اللغة العام ص ٣١ ـ نقله الى العربية د. أحمد نعيم الكراعين ـ طبع دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية ١٩٨٥م .

ومن ثم فانه يمكننا أن نقول : ان شخصا ما يعرف اللغة اذا كان يعرف نظمها وأشكالها وأنماطها المختلفة ملما بقواعدها وطريقة تركيبها ولكن لا يمكننا أن نقول انه يتكلم (أى تنسب اليه الكلام) الا اذا نطق وتحدث بهذه اللغة فعلا وواقعا •

وخلاصة القول أن اللغة تفترق عن الكلام — عند دى سوسير — فى الأمور الآتية :

١ — اللغة ظاهرة اجتماعية ، ذات مظهر جماعى ، أما الكلام فهو أحداث فردية •

٢ — اللغة أمر جوهرى ثابت ، أما الكلام فأمر ثانوى عارض متغير •

٣ — اللغة حتمية ، والكلام اختيار أو صدفة •

٤ — اللغة ليست وظيفة الفرد المتكلم ، ولكنها نتاج اجتماعى •

٥ — اللغة مجال الدراسة العلمية ، أما الكلام فلا يمكن دراسته دراسة علمية ، لاعتماده على الاختيار •

ويشير دى سوسير الى الفروق المميزة بين اللغة والكلام قائلا : « ليست اللغة وظيفة الفرد الناطق ، انها نتاج يسجله الفرد بطريقة سلبية ، فهى لا تشترط تفكيرا مسبقا •• أما الكلام فهو بعكس ذلك، نشاط فردى يخضع لارادة وعقل الناطق ، حيث يستحضر المتكلم دستور أو نظام اللغة ليطبقه »(٥٥) •

ويشبه دى سوسير اللغة بمقطوعة موسيقية أو سيمفونية ،

---

(٥٥) د• محمود جاد الرب : علم اللغة ص ٨٧ •

أما الكلام فهو بمثـــابة الأداء والعزف لهذه المقطوعة أو الســـيمفرنية واخراجها فى شكل أداء موسيقى محسوس •

كما شبه أيضا اللغة والكلام بلعبة الشـــطرنج ، فنظام اللعبة وقواعدها وأصولها التى يعرفها اللاعبون هو بمثابة اللغة ، أما تحريك قطع الشطرنج وممارسة اللعبة فعلا هو بمثابة الكلام(٥٦) •

هـــذا وقد كان من أبرز من تأثر بنظـــرية دى سوسير هـــذه فى التفرقة بين اللغة والكلام العـــالم اللغوى الأمريكى نوم تشومسكى ، فقد قسم النشاط اللغوى الى :

(أ) الكفاءة اللغوية **Performance** وهو ما يقابل اللغة عند دى سوسير •

(ب) الأداء **Compotence** وهو ما يسمى بالكلام عند دى سوسير أيضـــا •

ان اللغة عند تشومســـكى مجموعة محدودة أو غير محدودة من الجمل التى تتركب من مجموعة محدودة من العناصر ، وهنا فان كل لغة طبيعية تملك عددا محصورا من الفونيمات أو الحروف وهى الأبجدية•

ويقصد تشومسكى بالكفاءة اللغوية أن اللغـــة عبارة عن المقدرة التى يمتلكها كل فرد من أفراد مجتمع معين،والتى بها يتمكن من التعبير عما يريد بجمل مختلفة وبمعنى آخـــر أن تتوفر لدى كل فرد من أفراد المجتمع القدرة على فهم نظام وقواعد لغته حتى كأنهـــا صـــفة ذاتية وصورة ذهنية ثابتة فى ذهنه وعقله ، ومن ثم فان لديه القدرة أن يميز تلقائيا ما هو موافق لنظام وقواعد اللغة وما هو غـــير موافق ويقبل ويستسيغ ما يتفق مع نظامهـــا ، ويرفض ما لا يتســـق أو يتفق مع قواعدها ونظامها •

أما الأداء اللغوى أو الكلام عند تشومسكى فهو : السلوك النطقى الحالى للانسان ، والذى يتوقف بدوره على وجود المقدرة على التعبير عما يريده الفرد وفق قواعد اللغة ونظامها ، أو على خلاف ذلك (٥٧) •

أو هو تلك الأصوات التى تتكون منها الكلمات ، والألفاظ التى تتكون منها الجمل ، والتراكيب التى ينطقها الفرد بالفعل ، وهذه الجمل والتراكيب المنطوقة بالفعل قد تكون وفق نظام اللغة وقواعدها ، وقد تكون مخالفة للقواعد اللغوية ونظام اللغة ، قد تكون جملا مبعثرة أو كلمات مفردة ، حسب الظروف والمواقف التى تحكم الكلام الفعلى•

تعقيب :

حين نقارن بين ما ذكره علماء اللغة العرب القدماء وما ذكره المحدثون من علماء اللغة الغربيين فى الفرق بين اللغة والكلام نجد أن تصور القدماء يكاد يتفق مع ما ذكره المحدثون اتفاقا تاما •

فقد ذكرنا — سابقا — أن الكلام عند دى سوسير هو الصورة الواقعية أو الفعلية أو المنطوقة للغة ، والتى تكون وفقا لنظام معين •

وحين نضيف الى تعريف ابن جنى للكلام — « كل لفظ مستقل بنفسه،مفيد لمعناه » — تلك الملاحظة البارعة التي عبر عنها بـ «مواقع الكلام » والتى تدل على أن الكلام لم يكن استرسالا ولا ترجيما ، وانما كان الرجل العربى يتأمل مواقع الكلام(٥٨)،ندرك أن ابن جنى كان يعنى بالكلام التطبيق العملى لنظام اللغة • وهذا النظام هو ما سماه بـ « مواقع الكلام » •

---

(٥٦) دى سوسير : فصول فى علم اللغة ص ١٥٦ — ١٥٨ •

(٥٧) علم اللغة : د• محمود جاد الرب ص ١٩٤ •

(٥٨) الخصائص ١/٧٦ •

وهذا التصـــور الذى عبر عنه ابن جنى بهذا المعنى قد صرح به أبو الحسين أحمد بن فارس فى قوله « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بيَّن.

قيل له : ان كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتي يفهم الســـامع مراده ـــ فهـــذا أخس مراتب البيان ، لأن الأبكم قد يدل باشـــارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يســـمى متكلما ، فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا »(٥٩) .

هذه العبارة تدل على أن الكلام لا يفهم الا اذا جاء متفقا مع نظام اللغـــة ، وأنه شيء واللغـــة شيء آخر ، اذ هو بمثـــابة التطبيق العملى لهـــا .

فالمتكلم انما يتكلم على شرط لغة معينة ، بمعنى أنه يأتى بكلامه مصوغا بحسب النظم الصوتية والصرفية والنحوية من مفردات هـــذه اللغة ومادتها . فالكلام كما يبدو فى نظره نشاط عضـــلى مصـــوغ من رموز معينة موضوعة بحسب قواعد معينة هي اللغة .

وأن الذى يستعمل الاشارة يستعمل اللغة لا الكلام .

اننا بهذا نستطيع أن نقول ان علماء العربية القدامى قد سبقوا علماء اللغة المحدثين فى ادراكهم لهذا الفرق بين اللغة والكلام .

هذا ، وبالله التوفيق ...

د/ محمد علام محمد
المدرس بقسم أصول اللغة
بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر
بأسيوط

---

(٥٩) الصاحبى ص ١٦ .